﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾

[يونس: 117]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا لاحَ بِما مَضى أنَّ العِبْرَةَ في الإهْلاكِ والإنْجاءِ لِلْأكْثَرِ، قَرَّرَهُ وأكَّدَهُ وبَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ...﴾[1]. كما أنه سبحانه دفع بهذه الآية، ما قد يوهمه إهلاك المجرمين بأنهم قد ظلموا به؛ فبيَّن سبحانه أنه لا يهلك الناس أبدا ظالما لهم، ولو أنهم أصلحوا ما أهلكهم.

الجزاء على مقتضى ما غلب، تأكيد لما سبق وفرط

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

وما كان ربّك، يا محمّد، ليهلك القرى، التّي أهلكها - التي قَصَّ عليك نبأها - ظُلمًا، وأهلُها مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربَّهم، ظلمًا، ولكنه أهلكها بظلم أهلها وإجرامهم وتماديهم في غيِّهم، وتكذيبهم رُسُلَهم، وركوبهم السيئات[2]. وبهذا تشوّف البيان القرآني إلى ترجمة نظرية ربط الأحكام بالعلل، والتكليف بالوضع، والجزاء بالمقتضى تفضّلًا؛ فوعد بعدم إهلاك النّاس أوْزاعًا أو جماعات إلا إذا وجدت مقتضياته؛ لتكون النّظرية السببية أسّ الشريعة لمن ألقى السمع وعقل.

لا يهلك الله إلّا من يستحقّ ذلك، فلا تعاقب أمّة مصلحة على الإطلاق

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالواو:

قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ لما يُؤذن بِهِ

تعليل عقوبة الظالمين، بدلالة عطف السّبب على المسبّب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/530.

مَضْمونُ الجُمْلَةِ المَعْطوفِ عَلَيْها منْ تَعَرُّضِ المُجْرِمينَ لِحُلولِ العِقابِ بِهِم بِناءً عَلَى وصْفِهِم بِالظُّلْمِ والإجْرامِ، فَعَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّ نُزولَ العَذابِ ممَّنْ نَزَلَ بِهِ منْهُم لَم يَكُنْ ظُلْمًا منَ اللّه تَعالَى ولَكِنَّهُم جَرُّوا لِأَنْفُسِهِمُ الهَلاكَ بِما أَفْسَدوا في الأَرْضِ واللّه لا يُحِبُّ الفَسادَ[1].

نُكْتَةُ النّفي بـ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

صيغَةُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾، تَدُلُّ عَلى قوَّةِ انْتِفاءِ الفِعْلِ؛ إذ لمّا لاح بما مضى أنّ العبرة في الإهلاك والإنجاء للأكثر، قرَّره وأكّده وبيّنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾، على وجهٍ ذُكِرَ سبحانَه بالوصْفِ المُفْهِمِ لِلْإحْسانِ تَثْبيتًا لَهُ وتَأْمينًا[2]. و(كانَ) بمعنى صَحّ واستقام[3]. بَلِ اسْتَحالَ في الحِكْمَةِ أنْ يُهْلِكَ القُرى الَّتي أَهْلَكَها - حَسْبَ ما بَلَغَكَ أنْباؤُها - ويُعْلَمُ من ذَلِكَ حالُ باقيها منَ القُرى الظّالِمَةِ[4].

التأكيد على تعليق الإهلاك، أو الإنجاء بمقتضى قانون الأسباب

سرُّ التَّعبير في ﴿رَبُّكَ﴾:

ذُكِرَ سبحانَه بالوصف المُفْهِمِ لِلْإحْسانِ؛ تَثْبيتًا لَمقتضاه وتَأْمينًا لمبتغاه[5]، ونسبته إلى ضمير الخطاب العائد للنّبي ﷺ تشريفٌ له وتبجيل.

تثبيت وصف الإحسان، من حيثُ مقتضاه، وتأمينُ مَنِ ابتغاه

دلالة اللّام في سياق الآية:

اللّام لتأكيد النَّفي[6]؛ لأنّها زِيدت على مذهب الكوفيين في خبر كان، على سبيل التّوكيد[7]؛ وتُسَمّى عند النّحويين لامَ الجحود، والمعنى: ما صَحّ وما استقام لربّكَ، الذي خلقَكَ وقام على تدبير أمرك، أن يُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ يقع فيها، وأهلُها مصلحونَ مُتَعاونونَ في الإصلاح[8].

التَّأكيد على لوازم نفي الظُّلْم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/186.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/231.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/247.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/231.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/226.
(8) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3773.

وجه التَّعبير عن الإهلاك مضارعًا مبنيًّا للمفعول:

التَّأكيد على استحالة تخلُّفِ قانونِ معاقبة الأفراد والأمم

نَفْيُ الهلاك بصيغة الفعل المضارع المبنيّ للمفعول للتّأبيد، فلا يكون الإهلاك أبدًا حالَ كونِ أهلِ القُرى مصلحين، لذا ناسبَ مع الآية مجيءُ لام الجُحود؛ لأنَّها أبلغُ في النّفي[1].

سرُّ تعريف ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾:

تحديد مواقع الهلاك المعهودة

التَّعْريفُ في القُرى تَعْريفُ العَهْدِ[2]، أي: القرى التي أهلكها، هي التي قَصَّ عليك نبأها، ويُعلم من ذلك حالُ باقيها منَ القرى الظّالمةِ[3].

بلاغة المجاز المرسل:

إطلاق القرى والقصد منصرف إلى أهلها

المُرادُ بـ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ أهْلُها، على طَريقَةِ المَجازِ المُرْسل، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82][4]، وصِيرَ إليه للمبالغة في بيان صورة الإهلاك.

دلالة حرف (الباء):

الباء في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ للملابسة، وهي في مَحَلِّ الحالِ منْ ﴿رَبُّكَ﴾، أي: لَمّا يُهْلِكِ النّاسَ إهْلاكًا مُتَلَبِّسًا بِظُلْمٍ[5]. أي: استحال في الحِكْمة أن يُهْلِك القُرى ظالمًا لها، وذلك لِفَرْطِ رحمته ومُسامحته في حقوقه تعالى[6].

وجه تنكير لفظ (الظّلم):

دلالة تنكير الظّلم على التَّفخيم والتَّنزيه

قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾، يعني: أيَّ ظُلْمٍ كان، صغيرٍ أو كبيرٍ[7]، والتَّنْكيرُ: لِلتَّفْخيم والإيذانِ بِأنَّ إهْلاكَ المُصْلِحينَ ظُلْمٌ عَظيمٌ، والمُرادُ: تَنْزيهُ اللّه تَعالى عن ذَلِكَ بِالكُلِّيَّةِ، بِتَصْويرِهِ بِصورَةِ ما

(1) مجموعة من المؤلفين، فتاوى الشبكة الإسلامية: 2/2189. (تنبيه): لام الجحود: هي اللّام المسبوقة بفعل كَوْن مسبوق بنفي. وإلى هذا أشار من قال:
وكلُّ لامٍ قبلَه "ما كانا" *** أو "لم يكن" فللجحود بانا.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/530، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/247.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/140.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.

يَسْتَحيلُ صُدورُهُ عنهُ تَعالى، وإلّا فَلا ظُلْمَ فيما فَعَلَهُ اللّه تَعالى بِعِبادِهِ كائِنًا ما كانَ، لِما تَقَرَّرَ من قاعِدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ[1].

دلالة الواو في ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾:

الواو حاليَّة، وجملة: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ حاليَّةٌ؛ للدّلالة على أنّه لا يُجاوِر الظّلمُ الهلاكَ حالَ صلاحِ الأُمم وإصلاحهم لغيرهم. أي: لَمّا يُهْلِكِ النّاسَ إهْلاكًا مُتَلَبِّسًا بِظُلْم[2].

دلالة الواو على حال فكّ الارتباط، بينَ الصّلاح والإهلاك بظُلْم

وجه التّعبير بالأهل والإضافة فيه:

إضافَةُ (أهْل) إلَيْهِ تُفيدُ عُمومَهُ بِقَدْرِ ما أُضيفَ هو إليه، وصَرَّحَ هُنا بـ ﴿وَأَهْلُهَا﴾ تَنْبيهًا على أنَّ هَلاكَ القُرَى منْ جَرّاءِ أفْعالِ سُكّانِها[3].

تعميم الهلاك بما كسبت أيدي أهلها

توجيه الحاليَّة في جملة الفاصلة:

بيان ذلك: أنّه ما كان اللّه لِيُهْلِكَ أهلَ قرية إهلاكًا عامًّا، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: في حالِ ظُلْم، بِأنْ يوقِعَ إهْلاكَهم في حالِ إصْلاحِهمُ الَّذي هم عَريقونَ فيهِ، فَيَكونُ الإهْلاكُ في غَيْرِ مَوْقِعِهِ عَلى ما يَتَعارَفُ العِبادُ؛ مَعَ العِلْمِ بِأنَّ لَهُ أنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ في نَفْسِ الأمْرِ؛ لِأنَّهُ لا يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ[4].

القَصدُ إلى حال فَكّ الارتباط، بينَ الصّلاح والإهلاك بظُلْم

بيان المتشابه اللّفظيّ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: 131]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: 59]، الوارد في سورة هود ﴿لِيُهْلِكَ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/247.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/168.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/82.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.

آكَدُ في النَّفْيِ؛ لِأنَّهُ على مَذْهَبِ الكوفيِّينَ زيدَتِ اللّامُ في خَبَرِ كانَ على سَبيلِ التَّوْكيدِ، وعلى مذهب البصريين تَوجَّه النَّفْيُ إلَى الخَبَرِ المَحْذوفِ المُتَعَلِّقِ بِهِ اللّامُ، وهُنا ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1]، ونفى اللّه تعالى الظُّلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل في النّفي، لأنّ اللّام في ﴿لِيُهْلِكَ﴾ لامُ الجَحْد، ولا يظهر بعدَها (إن)، ولا يقع بعدَها المصدر، ولا تستعمل إلّا مع (كان) و(لم يكن)، ومعناه: (ما فعلت فيما مضى ولا أفعل في الحال ولا في الاستقبال)، فكان الغاية في النّفي، وليس كذلك ما في القصص: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾، إذ ليس فيها صريح ظُلْم، فاكتفى بذكر اسم الفاعل، وهو لأحد الأزمنة غير مبين، ثمّ نفاه[2]. والتّرديد بين ما ورد في قوله تعالى من وصف: ﴿غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: 131]، ووصف: ﴿مُصْلِحُونَ﴾؛ إذ وُجِد أنَّ نفيَ الإهلاك في الآية الأولى لا يكون مع الغفلة بل لا بدَّ أن يسبقه إرسالُ الرُّسل[3]، فسيقت إشارةُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: 131] إلى الغفلة عن دعوة المرسلين. وفي الكَلام إيجازٌ؛ إذْ عُلِمَ منهُ: أنَّ اللّه يُهْلِكُ القُرى المُسْتَرْسِلَ أهْلُها عَلى الشِّرْكِ، إذا أعْرَضوا عن دَعْوةِ الرُّسُلِ، وأنَّهُ لا يُهْلِكُهم إلّا بعد أنْ يُرْسِلَ إليهم رُسُلًا مُنْذِرينَ، وأنَّهُ أرادَ حَمْلَ تَبِعَةِ هَلاكِهِم عَلَيْهِم، حَتّى لا يَبْقى في نُفوسِهِم أنْ يَقولوا: (لَوْلا رَحِمَنا رَبُّنا فَأنْبَأنا وأعْذَرَ إلَيْنا)[4]، على معنى أنَّ عِلَّةَ الإرْسالِ هي عَدَمُ إهْلاكِ القُرى على غَفْلَةٍ. فآية الأنعام يَتَوجَّهُ فيهِ مَعْنَيانِ؛ أحَدُهُما: أنَّ اللّه ﷻ لَم يَكُنْ ليُهْلِكَ المُدُنَ دونَ نِذارَةٍ؛ فَيَكونَ ظُلْمًا لَهم إذا لَم يُنْذِرْهُمْ؛ واللّه تَعالى لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيدِ. والآخَرُ: أنَّ اللّه ﷻ لَم يُهْلِكْ أهْلَ القُرى بِظُلْمٍ؛ إذْ ظَلَموا؛ دونَ أنْ يُنْذِرَهُمْ[5].

وأمّا الموضوع الثّاني الذي ذكر فيه: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾؛ فللبناء على ما تقدّم، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾، فدلَّ على أنَّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/226.
(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/522 - 523.
(3) كتاب فتاوى الشبكة الإسلامية، ص: 189.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/81.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/347.

القوم كانوا مفسدين، حتّى نهاهم أُولو بقيّة عنِ الفساد في الأرض، فإنّ نقيض الفساد الصلاح[1]. والمعنى: وما كان ربُّكَ يا محمّد أن يهلك القُرى التي قَصّ عليك نبأها ﴿بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، ولكن أهلَكها بكفرها. وقيل: المعنى: ما كان اللّه ليهلكهم بظُلْمهم، أي: بِشِرْكِهم، وهم مصلحون، لا يتظالمون بينَهم، إنَّما يهلِكُهم إذا جمعوا معَ الشِّرك غيرَه منَ الفساد[2].

وحاصل الفرق على مقتضى ما تقدّم في كلّ آية، ما اتّبعت منَ الغافلين والمصلحين[3].

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 2/550.
(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3487.
(3) الخطيب الإسكافيّ، دُرّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 2/550.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»